حوار مع الشيخ راشد الغنوشي[1]

حول موضوع الديمقراطية والتعددية الثقافية

مركز دعم: العدد الأول من دورية دعم سيكون حول التعددية الثقافية والديمقراطية، فما هو تعريفكم لمصطلح التعددية الثقافية؟

الشيخ راشد الغنوشي: الثقافة هي ما يضيف الإنسان إلى الطبيعة ولذلك الإنسان هو الكائن الوحيد المثقف لأنه يضيف إلى الطبيعة قيمًا ومعاني و أفكارًا تفلسف الطبيعة فيصنع من ذلك ثقافة.

تتمايز الشعوب فيما بينها عادة بالثقافة أي بما يضيفه كل شعب إلى الطبيعة من

1 الشيخ راشد الغنوشي، مفكر و كاتب تونسي و رئيس حزب حركة النهضة.

أفكار وقيم ومعان لذلك العلوم لا تختلف من مكان إلى آخر لكن الثقافة تختلف من مكان إلى آخر.

البشر يتميزون بإنهم كائنات ثقافية بمعنى أنهم كائنات حرة قادرة على الإبداع وبطبيعة الحال سينتج عن ذلك تنوع وتعدد بإعتبار أن الانسان كائن حر وقادر على الإبداع ومتميز وبالتالي يصنع ثقافة تختلف عن غيره والمجموعة التي تعيش مع بعضها عيشها المشترك يسمح لها أو يدفعها لأن تصنع ثقافة، تصنع ميزات تتميز بها عن المجموعات الأخرى.

داخل هذه الثقافة التي تميز مجموعة هناك ثقافات جزئية يعني ثقافات عائلية و كل عائلة لها ثقافتها، ثقافة إقتصادية متى كانت تعتمد على التجارة، و عائلة أخرى فلاحية وأخرى عائلة صناعية. لذلك تجد العباقرة ينتمون إلى عائلات معينة تتميز بثقافة جزئية ضمن المجموعة العامة. الإختلاف بين هذه الثقافات يرجع إلى إختلاف مستويات الدخل، إختلاف مستويات التعليم، إختلاف الديانات...

إذن تفاعل الإنسان مع الطبيعة يصنع الثقافة لذلك فالفرق بين المهندس الغبي والنحلة الذكية هو أن الأول يبني البيت في رأسه قبل أن ينزله إلى الأرض بينما النحلة مهما بلغ ذكأؤها لا تملك إلا أن تكرر بشكل غريزي نفس نمط البناء كما ورثته عن مئات من الأجيال.

مركز دعم: ننتقل من العام إلى الخاص كيف يمكن أن نصف المجتمع التونسي من منظور التنوع الثقافي؟

الشيخ راشد الغنوشي: هناك هوية جامعة للتونسيين، لا نستطيع ظبطها بالتفصيل ولكن بشكل عام هناك أسلوب حياة عند التونسيين، هناك عادات وتقاليد، في إعداد الطعام وتقديم الطعام، في اللباس، في التعامل مع الأفراح، كيف يفرح التونسيون وكيف يحزنون، كيف يتواصلون، كيف يتزوجون، كيف يتعاملون مع خلافاتهم...

مركز دعم: في ظل الإنتقال الديمقراطي، ظهور الطبقات التي كانت مكبوتة في تونس، مثل الوقوف بجانب الأقلياتوالفئات المهمشة والمستضعفة.. كيف ترون هذا التطور؟

الشيخ راشد الغنوشي: الشعوب إزاء الظلم تسلك مسالك معينة. الشعوب إذا تفاقم

الظلم لديها قد تخرج للجبال مثلما هو الحال لدى الجزائريين لأن الجبال تعطي حصانة وتسمح بإعادة توزيع القوى والتوازنات ويصنع ميزان قوى جديد. التونسيون عندما يتفاقم الظلم عندهم وحسب ثقافتهم يخرجون كتلاً كبيرة إلى الشارع ويصنعون جبلاً في الشارع في الحقيقة ليعيدوا التوازن. على سبيل المثال بورقيبة عندما رفع ثمن الخبز من 80 مليم الى 180 مليم في 1978، الناس ضجوا وخرجوا إلى الشارع وصنعوا جبلاً حتى أعاد بورقيبة الأمور إلى ما كانت عليه. المعطى الثقافي في تعامل التونسيين مع الظلم هو ما جعل ثورتهم سلمية تتناسب مع أوضاعهم الإقتصادية والإجتماعية والطبيعية وحتى إستقلال التونسيين حصلوا عليه بثمن معقول ليس بثمن باهظ كما تمكنوا من المواصلة ولم يكتفوا بإشعال فتيل الديمقراطية وإنما حافظوا عليها من خلال أسلوب الحوار، في حين أن شعوبًا مماثلة تعاملت بطريقة أخرى إزاء أوضاعها. إذن نستطيع من خلال قراءة ردود أفعال الشعب إزاء الظلم، نستطيع ان نكتشف نوعية الثقافة السائدة في ذلك المجتمع.

مركز دعم: هل تعتبرون التنوع الثقافي في تونس عنصر أزمة أم انه عنصر يمكن البناء عليه في الديمقراطية؟

الشيخ راشد الغنوشي: يمكن أن يكون هذا و ذاك، يمكن أن يكون هناك تنوع ثقافي في تونس لأسباب كثيرة فتونس في قلب المتوسط وتضربها أمواج حضارات كثيرة والتونسيون يتلقون مصادر تأثير متنوعة بعضها يأتي من البر وبعضها يأتي من البحر فنحن شعب قريب من الغرب ونحن إمتداد للعالم العربي ونتأثر بما يحصل في العالم العربي من تيارات سياسية وفكرية كما نتأثر بأوروبا ونتيجة هذا التأثير للتيارات المختلفة نرى هنالك تنوعًا ثقافيًا الصراع لا يتجاوز في الغالب مستوى الكلام ولا يترجم الى أحزاب عنيفة. العنف ليس جزءًا من الثقافة التونسية ولكنه قد يحصل لأسباب إجتماعية وإقتصادية.

التنوع الثقافي يمكن أن يكون إثراءًا للثقافة التونسية فتغتني بمصادرها المتنوعة ويمكن أن يمثل نوعًا من الخطر أو نوعًا من الإعاقة عندما تتبلور تيارات إستأصالية أو رادكالية ترفض التعايش فيما بينها وتمارس سياسة الإقصاء والإقصاء هو مشروع عنف.

لذلك تاريخ تونس الحديث لم يخل سنة من تاريخ دولة الإستقلال من محاكمات سياسية بسبب عقلية الإنفراد والإقصاء مما يعني أن في ثقافة التونسيين هناك عناصر إقصائية كما أن هناك عناصر تسامح. لذا إذا غلبنا عناصر التسامح في الثقافة التونسية

تعايش التونسيون وسعدوا جميعًا، ولكن يظل هذا التعايش مهددًا بتيارات الإقصاء ورفع شعارات مثل شعار حرية الإعدام.

الدولة الديمقراطية لا تُبنى إلا على أساس رسوخ منطق المواطنة لأن الوطن ملك لسكانه بالتساوي لا أحد يحتكر الوطنية ويحتكر مقومًا من مقومات الوطنية كالحرية، كالإسلام، والعروبة. الوطنية لا يحتكرها طرف ويقصيها من طرف آخر فالإقصاء هو رهان على ثقافة العنف.

مركز دعم: في ظل ما تعيشه المنطقة من صراع، بدأت كل الهويات المكبوتة تظهر بعد الثورة، الى أي مدى حسب رأيكم يمكن التحكم في الهويات المكبوتة؟

الشيخ راشد الغنوشي: الثقافة الإسلامية مثلاً كبتت لسنوات في تونس. الشعب التونسي شعب مسلم وفي دولة الإستقلال كبتت الشعائر الدينية والثقافة الإسلامية وصودرت المؤسسات الدينية مثل جامع الزيتونة وهمشت المساجد. لكن في ظروف معينة في السبعينات عاد الطلب على الإسلام ورجع بقوة وتكونت جماعات إسلامية كان يمكن إستيعابها في النظام السياسي. لكن النظام السياسي كان نظامًا مغلقًا وفرديًا فأصطدم معها وعمل على دفعها للعنف واللجوء إلى الحل الأمني ولكن ما أن إنَهار سد المظالم التي أرتكبها النظام السابق حتى رجعت المياه إلى مجاريها وأصبحت الحركة الإسلامية أو ما يسمونه بالإسلام السياسي الحزب الأول في البلاد وهذا يدل على أن هويات الشعوب أقوى وأرسخ من سياط الدولة. الدولة لها دور كبير لكن الهويات الثقافية أرسخ وأقوى. أصطدمت الهوية في تونس مع الدولة ولكن في النهاية انتصرت هوية الشعوب.

مركز دعم: في ظل أن حركة الإسلام السياسي أصبحت اليوم الحزب الأول في تونس بعد ما مورس عليها من كبت لربع قرن من الزمان، ما مدى إستعداد الحركة اليوم لإستيعاب الهويات الأخرى المكبوتة التي بدأت تعبر عن نفسها الآن؟

الشيخ راشد الغنوشي: نحن تخلينا عن الإسلام السياسي وإستبدلناه ب»**الإسلام الديمقراطي**»، نحن حزب ديمقراطي مسلم، والفارق بينهما أن الإسلام الديمقراطي ينطلق من مبدأ التوافق المطلق بين الإسلام والديمقراطية، من ناحية ثانية ينطلق من الدولة الوطنية وليس في مشروعه بناء وهمية أمة إسلامية سياسية، فالأمة الإسلامية

موجـودة وهـي أمـة ثقافيـة روحيـة أيديولوجيـة ولكنهـا ليسـت فـي أيامنـا أمـة بالمعنـى السياسـي بـل هـي أمـة بالمعنـى الثقافـي.

تونـس دولـة ونحـن نحتكـم إلـى قانـون هـذه الدولـة ونبنـي مشـروعنا علـى مبـدأ المواطنـة للمواطنـة أي أن كل التونسـيون متسـاون بقطـع النظـر عـن عقائدهـم وهوياتهـم الخاصـة ونحتكـم بالتالـي إلـى سـلطة الشـعب بإعتبـار أن آليـات الديمقراطيـة هـي أفضـل طريقـة تشـغيلية للشـورى فـي الإسـلام.

مركـز دعـم: الإسـلام الديمقراطـي فـي تونـس هـو طبعـة أخـرى مـن الإسـلام السياسـي، يختلـف عـن مصـر، عـن ليبيـا، عـن الجزائر...هـل هـذا يجعـل النمـوذج التونسـي نمـوذج اكثـر إنفتاحًـا علـى التعدديـة الثقافيـة؟ هـل تسـعى الحركـة فـي تونـس إلـى تقديـم نمـوذج أكثـر إنفتاحًـا علـى التعدديـة الثقافيـة فـي المنطقـة أو هـي فقـط حريصـة علـى الوضـع الداخلـي التونسـي؟

الشـيخ راشـد الغنوشـي: نحـن لسـنا مهتميـن كثيـرًا بـأن نكـون أحسـن مـن غيرنـا. همنـا الأساسـي هـو أن نكـون قادريـن علـى أن نفهـم الإسـلام بطريقـة تجعلـه عنصـرًا إيجابيًـا فـي تحقيـق أهـداف شـعبنا وأهـداف ثورتنـا وليـس عامـلاً سـلبيًا.

الإسـلام بطبيعتـه ديـن منفتـح إعتـرف منـذ البـدأ بالديانـات كلهـا وبنـى دولـة علـى أسـاس المواطنـة التـي إسـتوعبت كل المكونـات المجتمعيـة والدينيـة فـي ذلـك المجتمـع وظلـت المجتمعـات الإسـلامية عبـر التاريـخ حافلـة بالتنـوع رغـم المظالـم حتـى أن أقـدم بيئـة حضاريـة إسـلامية وهـي بيئـة العـراق التـي ظلـت عاصمـة الإمبراطوريـة الإسـلامية لمـدة 500 أو 600 سـنة لا تـزال إلـى اليـوم حافلـة بآثـار التعـدد الثقافـي حتـى يخيل لـك أن العـراق متحـف للديانـات. هنالـك حضـارات لا توجـد خـارج العـراق كاليزيديـن والصبيـة، فهـذه وحـدات وديانـات صغيـرة أو مجموعـات مسـيحية صغيـرة أبيـدت تحـت سـلطة الكنائـس الكبـرى فإلتجـأت إلـى أرض الإسـلام بإعتبارهـا أرض تعـدد دينـي وتسـامح ثقافـي رغـم الفسـاد فـي المسـتوى السياسـي ولكـن علـى المسـتوى الثقافـي ظلـت المجتمعـات الإسـلامية عبـر التاريـخ حافلـة بالتنـوع داخـل الإسـلام. الإسـلام لـم تحتكـره كنيسـة وظـل الإجتهـاد حـرًا والمجتمعـات حـرة. المجتمـع التونسـي يتمذهـب بالمذهـب المالكـي بينمـا سـلطته كانـت السـلطة التركيـة المعتنقـة للمذهـب الحنفـي وليـس مثـل دولـة إنجلتـرا أيـن غيـر الحاكـم دينـه مـن الكاثولكيـة إلـى البرسـتنتينية فتغيـرت إنجلتـرا كلهـا. فـي الإسـلام تفسـير النصـوص حريـة متاحـة فظلـت المجتمعـات الإسـلامية بهـا تنـوع حقيقـي وبهـا تعدديـة ثقافيـة حتـى لـو لـم يكـن بهـا تعدديـة سياسـية لكـن التعـدد

الثقافي ظل محترمًا لإن مبدأ لا إكراه في الدين مبدأ ثابت. عندما أقررنا بحرية الضمير في دستورنا ظن البعض أننا نقلد غيرنا أو خضعنا لمبدأ الغرب بينما هذا مبدأنا الأساسي في الإسلام. حرية المعتقد تبنى عليها كل النظم والشرائع فكلها تنطلق من مبدأ حرية الإعتقاد.

مركز دعم: هل تنجح الديكتاتورية أحيانًا في أن تبرز بشكل ديكوري بأن هناك توافق في الهويات؟

الشيخ راشد الغنوشي: يمكن أن تنجح لوقت قصير في تحقيق الوحدة الوطنية وتشرع لنفسها بأن تحققها لكن هذا أمر وهمي ومؤقت. الوحدة لا تتم تحت السياط فالوحدة الحقيقية تقوم على قناعة المتعايشين في أن يعيشوا في وطن واحد. نحن إنتقلنا من وحدة وطنية مفروضة ب الحديد و النار إلى وحدة وطنية إختيارية. نحن مازلنا نعيش في مرحلة إنتقالية و مراحل الإنتقال الوحدة والتوازن فيها نسبي. إستقرارنا في تونس نسبي فنحن شعب يبحث عن صيغة للمواطنة والتقدم الإقتصادي والإجتماعي توفق بين الحرية والوحدة وبين الحرية والعدالة، يبحث عن صيغة لضمان هذه القيم التي تبدو متناقصة منذ زمن قديم.